المبحث الثاني

مرتكزات دعوة الشيخ محمد
ابن عبد الوهاب تعيد التشكيل الإسلامي للحياة

كان العالم الإسلامي في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين « السابع عشر والثامن عشر الميلاديين » قد وصل -نتيجة ضعف صلته بالإسلام الذي كان به ظهوره الحضاري علمياً وخلقياً- إلى حالةٍ مؤسفةٍ من التخلّف والجهل وفوضى الحياة وضعف الهمم، وانحراف التصوّر الإسلامي، وقصور الوعي الدّيني عموماً، حتى أصبحت كثيرٌ من مجتمعاتهم كمّاً بشريّاً لا قيمة له في ذاته ، ولا أثر له في المجال الحضاري بصفته جزءاً من أمّة كانت صاحبةَ السّيادة الحضاريّة .

إنها حالة جعلت بعض الكفّار المتأمّلين لذلك الواقع يأسون لهذه الأمة، ويستنكرون انحدارها المريع .

ومن أشهر ذلك ما قاله "هوغارت " ومثله الكاتب الأمريكي "ستودارد" الذي قال بعد تصويره المشهور لحال المسلمين ملخّصاً: « وعلى الجملة فقد بُدِّل المسلمون غير المسلمين، وهبطوا مهبطاً بعيد القرار، فلو عاد صاحب الرّسالة إلى الأرض في ذلك العصر، ورأى ما كان يدهى الإسلام لغضب وأطلق اللّعنة على من استحقّها من المسلمين، كما يلعن المرتدِّين وعبدة الأوثان »[1].

وكانت الجزيرة العربيّة في ذلك الوقت تعاني ما تعانيه سائر مجتمعات

---

(١) في كتابه: حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، وانظر بعض النقول في: محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم، مسعود الندوي، ترجمة عبد العليم البستوي، ص ٣٢ - ٣٣، ١٤٠٤هـ.

المسلمين من تخلّف وجهل ، بل ربما زادت على كثير منها جهلاً بالدين ، واضطراباً في الأوضاع السّياسيّة ، حيث الاضطراب ومنطق السّلب والنهب ، والصّراع على الزعامات ، حتى أحياناً في البلدة الواحدة التي لا يتجاوز سكّانها بضعة آلاف .

في هذه الآونة الحرجة من تاريخ المسلمين ، وُلد في إحدى قرى نجد وهي " العيينة " ابنٌ للقاضي فيها (عبد الوهّاب بن سليمان) الذي سمّى ولده « محمّداً » وذلك في سنة ١١١٥هـ .

شبّ هذا المولود متميّزاً بالذّكاء ، فحفظ القرآن قبل العاشرة من عمره ، ثمّ درس العلم الشّرعي في بلدته ، وسافر إلى مكّة والمدينة والبصرة والأحساء متزوّداً من العلم في كلّ مكانٍ يجده فيه .

أقبل على كُتُب المصلح السَّلفي البارع شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكُتُب تلميذه ابن قيّم الجوزيّة وهي كتبٌ تتسم بشموليتها العلميَّة وبمنهجيَّتها ، وسلفيّتها ، أي بردّها القضايا كلّها عقديّةً أو شرعيّةً إلى القرآن الكريم والسّنة المطهّرة ، فنهل منها بفهمٍ ووعيٍ .

وهكذا تشكّلت شخصيّته العلميّة الناضجة[1] ، حيث حفزها ذلك إلى أن تبدأ مسيرة حركيّة توجه الواقع البشري نحو المسلك الصحيح في الحياة في كافة جوانبها ، وهنا بدأتْ « دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب » في نجد في منتصف القرن الثاني عشر الهجري ، فقلبت الأحوال في الجزيرة العربيّة ، وامتدّ أثرها في العالم الإسلامي كلّه خلال ما تلا ذلك من قرونٍ حتى الآن .

---

(١) انظر : علماء نجد خلال ستة قرون ، لعبد الله البسام ، ١/ ٢٥ ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٨هـ .

دعوة متميّزة : خلال الأجيال التالية لظهور الإسلام على امتداد القرون، ظهرت دعواتٌ إصلاحيّةٌ تجديديّةٌ ، وبرز قادةٌ سياسيّون استهدفوا التغيير والإصلاح ، وتفاوتتْ نجاحاتُ هذه الدّعوات قوّةً وضعفاً .

لكن هذه الدّعوة التي بعثها « محمد بن عبد الوهاب في نجد » كان لها تميّزها الذي انعكس على تأثيرها .

* لقد وعى الشيخ محمد بن عبد الوهاب حقيقة الخلل الذي أصاب المسلمين فسقطوا تاريخيّاً ، والذي تمكن في الجزيرة موطن العرب الذين بهم اعتزّ الإسلام في ظهوره الأوّل ؛ وردّ هذا الخلل إلى سببه الرّئيس ، وهو تخلي كثير منهم عن الإسلام في حقيقته الصحيحة التي جاء بها محمد ﷺ وحملها أصحابه، ممّا جعل تجاوز هذا الخلل لا يتحقّق إلاّ باتّقاء سببه ، وذلك بالعودة الصّادقة إلى الدّين .

وهو هنا يستعيد السّنة التاريخيّة التي نظّرها العالم المسلم عبد الرّحمن بن خلدون في القرن الثامن الهجري من خلال استقراء تاريخيٍّ لعلاقة العرب بالإسلام، حيث السّموّ والنظام والإنسانيّة والتفوق الحضاري حين التزام الإسلام التزاماً إيمانيّاً دعويّاً، في مقابل الهمجيّة وسقوط الهمّة والتراجع الإنساني والحضاري إذا تفلّتوا من الدين ؛ يقول ابن خلدون وهو يتحدّث في فصل : أنّ العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك :

« . . . وإنّما يصيرون إلى -سياسة الملك - بعد انقلاب طباعهم وتبدّلها بصبغة دينيّة تمحو ذلك منهم ، وتجعل الوازع لهم من أنفسهم ، وتحملهم على دفاع النّاس بعضهم عن بعض كما ذكرناه ، واعتبر ذلك بدولتهم في الملّة لما شيّد لهم الدّين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها، المراعية لمصالح العمران ظاهراً

وباطناً . . عظم حينئذ ملكهم ، وقوي سلطانهم . . ثمّ إنّهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيالٌ نبذوا الدّين ، فنسوا السياسة ، ورجعوا إلى قفرهم ، وجهلوا شأن عصبيّتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة ، فتوحّشوا كما كانوا . . وأقاموا في بادية قفارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته» .

وبعد ذكر بروزهم في القرون الإسلاميّة الأولى يقول : « لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدّين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة ، وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة ، كما في المغرب لهذا العهد ، فلا يكون مآله وغايته إلاّ تخريب ما يستولون عليه من العمران »[1] .

هي إذن حقيقة تاريخيّة كبرى ، سنة من سنن الله الماضية : « أنّ الإنسان العربي جبلّةً وتاريخاً اجتماعيّاً وسياسياً لا يصلح بغير نبيٍّ ، وأنّ تاريخه ينقسم قسمين واضحين لا لبس فيهما :

- القسم الذي ارتبط فيه هذا الإنسان العربي بالنبوّة وبصبغة دينيّة ، وهم في هذا القسم ليسوا مجرّد بشرٍ ، وإنّما هم ملائكة الدّنيا وصنّاع الحضارة وساسة الملك .
- والقسم الثاني حين ينفصل العرب عن النّبوّة وعن الدّين وعن الصّبغة الدّينيّة . . إنّهم ينحدرون فوراً من مستوى الملائكيّة والإنسانيّة العالية ، ليس إلى مستوى العقل ، أو العمل وفق المصلحة الدنيويّة أو قوانين الاجتماع الإنساني ، بل إلى مستوى البداوة والانحطاط ، حيث يكونون أقرب إلى « الحيوانيّة » يقاتل الواحد منهم أخاه ، ويخون الواحد منهم وطنه ، وتدور

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ١٥٢ ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، سنة ١٩٧٨م .

بينهم حروبٌ على ناقة أربعين سنةً ، وينسون الأخطار المحدقة بهم من أعداء دينهم ووطنهم ، فيتقاتلون على حدودٍ وهميّةٍ صنعها لهم أعداؤهم . . . »[1] .

هذه السنة الربانيّة الجارية على العرب -كما يقول ابن خلدون- يراها المصلحون ومنهم الشيخ محمد بن عبد الوهّاب عامة للأمة المسلمة ، حتى من العجم ، ومن هنا كانت استعادتهم لقول الإمام مالك - رحمه الله- : « لا تصلح هذه الأمة إلاّ بما صلح به أوّلها » ، ومن الوعي بها كان منطلق دعوته .

* أيضاً فقد وعى الشيخ محمد بن عبد الوهاب -من وعيه بحقيقة الإسلام- ضرورة شمولية الدعوة لكل جوانب الحياة العقديّة والعبادية، والخلقيّة والاجتماعيّة لتستكمل الشخصيّة الإسلاميّة سمتها ، رافضاً الصور التجزيئيّة للإسلام :

- التي أحالته إلى تصوّرات فكريّة جافّة عن الوجود ، كما في علم الكلام .
- وإلى تهويمات صوفيّة وجدانيّة منكفئة عن حركة الحياة لدى كثير من المتصوّفة .
- وإلى رسومٍ شكليّةٍ من السلوكيات خاويةٍ من الإيمان الدافق والأساس العقدي .
- وإلى عبادات شعائريّة محدودة يشعر المسلم بعدها بحريّته في الخضوع لغير الدين أعرافاً وتقاليد وأنظمةً لا صلة لها بالإسلام . . . إلخ الصور .

لهذا لم ينحصر الشيخ في فنٍّ شرعيٍّ متجاهلاً الفنون الأخرى، لم يكن مجرّد عالم كلام، ولا فقيهاً بالأحكام العمليّة التفصيليّة ، ولا مقتصراً على الوعظ بالعبوديّات النفسيّة القلبيّة حبّاً وخوفاً ورجاءً ونحوها ، وإنّما كان ذلك

(١) التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، عبد الحليم عويس، ص ١٣٤ .

كلّه ومؤلّفاته شاهد ذلك، وشخصيّة الحركة التي بعثها دليل ذلك .

* ومع هذه الشموليّة فقد وعى الشيخ أنّ الأساس والمرتكز هو العقيدة، فالعقيدة هي الطاقة الكهربائيّة التي لا قيمة للأسلاك ولا المصابيح ولا الأجهزة ما لم تستمدّ منها تلك الطّاقة التي تبثّ فيها الحياة، وتحقق منها الثمرة، ومن ثمّ تكون ديناً؛ أي مقبولةً عند الله تعالى[1].

ولهذا كان أوّل كتاب ألّفه الشيخ هو " كتاب التوحيد " الذي قرّر فيه مسائل العقيدة المهمّة ، وكشف في ضوئها الانحراف الذي وقع فيه كثير من الناس في صورة ممارساتٍ شركيّةٍ وبدعيّةٍ يظنّونها من الإسلام وهي تضادّه .

ومن السّهل إدراك أثر هذا التميّز في نجاح دعوة الشّيخ من المقارنة بدعواتٍ كثيرةٍ لم تعط الجانب العقدي مقامه الأولى ، فكان لذلك أثره السّلبي في حركتها ، وشخصيات أتباعها .

* وعى الشيخ أنّه لا بدّ للدعوة من قوّةٍ سياسيّة تتمثّل الدعوة ؛ ليقوم عليها نظامها السياسي؛ أي أنّ السياسة لدى هذه القوّة تندمج في الدعوة، لا أنّها تحمل الدعوة فقط أو تنصر دعاتها لمصلحة سياسيّة بحتة التقت السياسة مع الدعوة فيها في ظرفٍ معيّنٍ، كما تفعل بعضُ الدّول حينما تريد مقاومة تيّارٍ فكريٍّ أو حزبي معيّنٍ ، فتستعين بالاتجاه الإسلامي لمحاربته باسم محاربة الغزو الفكري الذي يمثّله ، لقد بحث الشيخ عن قوّةٍ سياسيّةٍ تصبح هي الدعوة[2].

---

(١) قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ الآية رقم (٩٧) من سورة النحل .

(٢) قال الملك عبد العزيز مقرراً هذه الحقيقة : « البيت السعودي صاحب رسالة قبل أن يكون بيت ملك » . السعوديون والحل الإسلامي، محمد جلال كشك، ص ١١٥ ، الطبعة الثالثة .

* أدرك الشيخ تفرّد دعوته التي يدعو إليها، فهي تدعو إلى أعظم حقائق الوجود الإنساني « العبوديّة لله » الحقيقة التي بها -وحدها- سعادة الإنسانيّة، الحقيقة التي على أهميّتها هذه، فإنّ وجودها في حياة البشريّة عموماً قد تضاءل، وأصابها التشويه ، وعَتَّمت عليها الضلالات لا عند العامة والجماهير ، بل عند كثيرٍ من العلماء والقادة الفكريين .

هذا الإدراك ولّد لدى الشيخ ، ومن ثمّ لدى أتباعه شعوراً بالتميّز والاستعلاء الذي يحفز إلى الانطلاق غير المتردّد أو المتعثّر أمام العوائق نحو تحقيق هذا الطّموح الجليل .

وهذه هي عقدة « التفوّق » التي لا بدّ منها لأيّ حركة تستهدف النهوض الحضاري في إطار تراثها وقيمها الخاصّة .

في ضوء هذا الوعي بهذه التميّزات وغيرها بدأ الشيخ دعوته إلى الإسلام وفق صورته الصحيحة ، التي رسمتها تعاليم القرآن الكريم والسّنة المطهّرة، والتمس القوّة السياسيّة عام (١١٥٤هـ) في بلدة العيينة لدى أميرها ابن معمر، لكنّها لم تستطع الامتزاج بالدّين امتزاجاً لا رجعةَ فيه، فسهل انفصالها عنه نتيجة تهديد جاء ابن معمر من حاكم الأحساء سليمان بن محمد الخالدي بأن يتخلّى عن الدعوة والداعية.

لقد حاول الشيخ أن يُمدَّ ابن معمر من الإيمان الواثق الذي يحمله بنجاح الدعوة وعلوّ شأن من يرفعها، حتى على حاكم " الأحساء " نفسه، لكنّه لم يستطع تثبيت قلبه ، فأعلن للشيخ تخلّيه عنه، وضرورة خروج الشّيخ عن بلده[1].

(١) انظر: عنوان المجد، ١/ ٢٣.

هنا اتجه الشيخ - على قَدَرٍ - نحو الدرعية لتبدأ فصول حركة تاريخيّة امتدّتْ زماناً ومكاناً وما زالتْ .

كانت أسرة حاكم الدرعية وهو محمد بن سعود بن مقرن القريبة (زوجته وأخواه) تمتاز بالعقل والدين .

والعقل والدين هما القاعدتان اللّتان تقوم عليهما الحياة البشريّة فتفيض إنسانيّةً وعدلاً .

الدين بدليل أنّ أخوي الحاكم - وهما مشاري وثنيان - كان قد تبعا الدعوة قبل أن تأتي للدرعية .

والعقل الذي يمثّله موقف زوجة الحاكم محمد بن سعود في حثّها زوجها ألاَّ يتردّدَ في استقبال الشيخ ودعمه، وأنّه غنيمة ينبغي ألاَّ يحرَم نفسه إيّاها وقد جاءت إليه .

ثمّ هما (العقل والدين) يتمثّلان في موقف الحاكم نفسه محمد بن سعود وهو يستقبل الشيخ ، ويعلن تبنّي دعوته لتصبح هي رسالة دولته التي ستمتدّ عبر القرون تتمثّلها، وتدعو إليها ، وتجاهد في سبيلها وفي موقفه حينما استوعب الدّرس الإيمانيّ من الشّيخ برفعة من يعلي « لا إله إلاّ الله »، حيث يشترط على الشيخ أن يظلّ مع دولته بعد النصر والتمكين ، ممّا يدلّ على ظن غالب بالظّهور لا تهزّه المعوّقات الماديّة التي لا بدّ من وقوعها ، كما يدلّ علىً وعيه أن بقاء الدعوة مع الدولة ، ليس فقط سبباً في ظهورها، بل وفي امتداد سيادتها وتماسك انطلاقتها الحضاريّة ، وأن تخلّيها عن الدعوة خطرٌ على وجودها وعاملٌ أكبر في فنائها[1] .

(١) وهي قضية لم يزل يعيها قادة الدولة السعودية المتتابعون، ويؤكّدونها في خطبهم وأعمالهم .

مرتكزات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

وبتعاهد الأمير محمّد بن سعود ، والشّيخ محمّد بن عبد الوهّاب في الدّرعية عام (١١٥٧هـ) بدأت الحركة غير المتعثّرة لإعادة التشكيل الإسلامي للحياة، من خلال المرتكزات التالية :

المرتكز الأوّل : التوحيد

التوحيد هو غاية الوجود الإنساني ، ومن أجله بعث الله الرّسل وأنزل الكتب، وهو مضمون الشهادة « لا إله إلاّ الله محمد رسول الله » أوّل أركان الإسلام ومدخله .

هذا التوحيد هو الذي رسخه الرّسول محمّد ﷺ وبنى عليه شخصيّات أصحابه، مطهّراً قلوبهم وسلوكهم وجزيرتهم من كلّ ما يخالفه من شرك ووثنيّة ، وهو التوحيد الذي استهدفه الصحابة وتابعوهم بإحسان من فتوحاتهم لممالك الأرض[1]. لكنّ الأمّة الإسلاميّة صاحبة التوحيد جهلٍ فئام من أبنائها بعد تطاول القرون حقيقة هذا التوحيد ، وانتشر فيهم الشّرك ، وعادت الوثنيّة في صورها المختلفة إلى حياتها ، حتى في الجزيرة العربيّة مهد التّوحيد .

وحينما بدأ الشّيخ دعوته وأدرك قيمة التوحيد في الإسلام من جهة ، وانحراف الواقع عنه من جهة أخرى ، جعله محور حركته ، وأعلن صراحةً هذه الحقيقة على الرّغم من صعوبتها على النّفوس، خاصّةً ممن يوصفون بالعلم الشّرعي حينما يدانون بجهلهم أكبر حقائق الدّين، لكن المداجاة في هذه المسألة لا سبيل إليها، بل السّبيل هو الصّراحة، قال الشيخ في رسالةٍ بعث بها من

---

(١) حيث قال ربعي مجيباً "رستم" قائد الفرس في القادسية لما سأله عن سبب مجيئهم : « **الله ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد . . .** » .

الدّرعية إلى أهل الرّياض ومنفوحة : « فمن زعم من علماء العارض أنّه عرف معنى « لا إله إلاّ الله » ، أو عرف معنى الإسلام قبل هذا الوقت ، أو زعم عن مشايخه أنّ أحداً عرف ذلك فقد كذب وافترى ، ولبس على الناس ، ومدح نفسه بما ليس فيه ، وشاهد هذا أنّ عبد الله بن عيسى ما نعرف في علماء نجد ولا علماء العارض ولا غيره أجلّ منه ، وهذا كلامه واصلٌ إليكم »[1] .

وإذنْ فلا بدّ من تحقيق التوحيد في الواقع ، ومطاردة الشّرك والوثنيّة ، وهنا تأتي مشكلة المنهج لتحقيق التوحيد ، وهي مشكلةٌ خطيرةٌ؛ لأنّها كانت إحدى أكبر الأسباب التي أُفْسِدَ التوحيد من خلالها ، لقد استبعد الشيخ مناهج علم الكلام والفلسفة في دراسَة التوحيد ، كما استبعد مناهج الفلسفة الصّوفيّة ؛ لأنّها كانت بشهادة التاريخ عامل انحراف بالتوحيد عن صورته الإسلاميّة .

ولم يبق إلاّ منهج السّلف الصالح من صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان ، كالأئمّة الأربعة : أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهم ، وذلك بالاعتماد على نصوص القرآن والسنة ، وفهم هذا السّلف الكريم بالأسلوب الفطري البسيط الذي تتبلور فيه الحقيقة جليّةً للعامي والمثقّف والعالم على السّواء .

ومن أبرز عناصر تقريره للتوحيد ما يلي :

* التوحيد ثلاثة أنواعٍ لا بدّ منها مجتمعةً :

---

(١) القسم الخامس من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، طُبع بجامعة الإمام ، الرسائل الشخصيّة ، رسالة رقم ٢٨ ، ص ١٨٧ ، وكلام ابن عيسى هو رسالة عامة وجهها للناس يقول فيها : « . . فالله الله عباد الله ، لا تغترّوا بمن لا يعرف شهادة أن لا إله إلا الله وتلطّخ بالشّرك ، وهو لا يشعر ؛ فقد مضى أكثر حياتي ولم أعرف من أنواعه ما أعرفه اليوم ، فلله الحمد على ما علمنا من دينه » . المرجع نفسه ص ١٩٣ .

- توحيد الله بأفعاله في الوجود خلقاً وتدبيراً وهدايةً ، وهو توحيد الرّبوبيّة .
- توحيد الله بأفعال العباد ونحوه صلاةً وصياماً ، وحبّاً وخوفاً، ورجاءً واستعانةً ، واستغاثةً ودعاءً . . . إلخ ، وهو توحيد الألوهيّة .
- توحيد الأسماء والصّفات، بالإقرار بما جاء في النصوص منها ودعاء الله بها .

* لا إله إلاّ الله كلمةٌ يردّدها الملايين ، لكن قيمتها لا تتحقّق إلاّ بوعي معناها والالتزام به ، ويكون ذلك بشروط سبعة هي عناصر معنى هذه الشهادة ، وهي :

- العلم ، ويقابله الجهل .
- الانقياد له ، ويقابله التَّرك .
- اليقين، ويقابله الشّكّ .
- الإخلاص، ويقابله الشّرك .
- القبول، ويناقضه الرّدّ .
- الصّدق، ويقابله الكذب .
- المحبّة، ويضادّها الكره والبغض والعداء .

* شهادة أنّ محمّداً رسول الله : لا تتحقّق إلاّ بمتابعة الرسول محمّد ﷺ في الاعتقادات والأقوال والأعمال ، ووزن جميع التصرّفات البشريّة بمنهجه ، فمقتضى هذه الشهادة « طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر ، واجتناب ما عنه نهى وزجر ، وألاَّ يعبد الله إلا بما شرع » .

* الكفر بالطّواغيت : لا يتحقّق الإيمان الصّحيح بالله إلاّ بالكفر بكلّ طاغوت، سواء كان ممّن ادّعى الألوهيّة كاملةً ، أو ادّعى جزءاً منها، وقد ذكر

الشيخ خمسةً قال : إنّهم رؤوس الطواغيت ، وهم :

- إبليس .
- من عُبدَ وهو راضٍ .
- من دعا الناس إلى عبادة نفسه .
- من ادّعى شيئاً من علم الغيب كاهناً أو عرّافاً أو غيره .
- من حكم بغير ما أنزل الله .

* البيان التفصيلي للمصطلحات الشرعيّة الكبرى في العقيدة :

- مثل مراتب الدّين : الإسلام والإيمان والإحسان .
- ومثل الكفر وأنواعه .
- والشّرك وأنواعه .
- والنفاق وأنواعه .

* نواقض الإسلام : إذ ينبغي للمسلم إذا أشاد بنيان توحيده أن يصونه من المؤثّرات التي تستهدف تشويهه وإفساده ، ومن أهمّها النواقض العشرة التالية :

- الشرك بالله في العبادة، كالتوكّل على غيره، والاستعانة به، والذّبح له .
- جعل وسائط بينه وبين الله يدعوهم ويسألهم الشفاعة .
- اعتقاد أنّ المشركين أو الكفّار على حقٍّ في شركهم وكفرهم ، أو الشّكّ بأنّ ما هم عليه باطلٌ .
- أن يعتقد أنّ الأحكام التي شرعها البشر أكمل وأحسن من الأحكام التي شرعها الله ورسوله ﷺ .
- بغض شيءٍ ممّا جاء به الرّسول ﷺ سواء كان من العقائد أو الأحكام .
- الاستهزاء بشيءٍ من دين الرسول ﷺ، أو بثواب الله وعقابه .
- السحر، لما فيه من استعانةٍ بالشياطين تؤدّي إلى عبادتهم .

- الولاء للمشركين ونصرتهم على المسلمين .
- اعتقاد أنّه لا يلزم جميع الناس اتّباع الرّسول محمّد ﷺ ، وأنّه يمكن لبعض الناس أن يجد لنفسه ديناً غير الدين الذي جاء به ﷺ .
- الإعراض عن دين الله الحقّ رغبةً عنه لا يتعلّمه ولا يعمل به[1] .

* سدّ الذرائع الشركيّة : كما أنّه ينبغي صيانة التوحيد من النواقض الخطيرة ، كذلك فإنّه ينبغي حياطته من الشّوائب الشركيّة التي تكون خفيةً أو مشتبهةً على بعض الناس أوّل الأمر ، لكنّها تتطوّر إلى شرك أكبر مخرج عن الملّة، كالرياء والسمعة في العبادات ، والحلف بغير الله، وقول ما شاء الله وشئت، والبناء على القبور وغيرها ممّا ذكره في كتاب التوحيد وغيره[2] .

هذا هو التوحيد الذي جعله الشّيخ المحور الأوّل والمنطلق لحركته المتجهة لإصلاح حياة الناس .

وهذا التوحيد بتحريره القلوب من الخوف والطّمع والهلع من غير الله ، يحرّر حركة الناس بالتالي من كلّ العبوديّات لغير الله ، ولهذا كان طبيعيّاً أن تصطدم الدعوة فور إعلانها هذا المبدأ بكلّ القوى المستغلّة لجهل الإنسان ، ومن ثمّ سهولة التلاعب بمشاعره واستتباعه ، فاصطدمت بالطّرق الصّوفيّة ، وبالوثنيّات الضريحيّة، وبالسياسات الجائرة، وبمدعي العلم الدجالين فضلاً عن

---

(١) انظر في هذه المسائل رسائل الشيخ مثل : رسالة في معنى الطاغوت، ورسالة " الأصول الثلاثة " ، ورسالة " نواقض الإسلام " في :
- مجموعة التوحيد، توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة .
- القسم الأول من مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي أخرجته جامعة الإمام، طبع مطابع الرياض .

(٢) كل هذه المسائل مبثوثة في كتب الشيخ ورسائله، رحمه الله .

الكهّان والعرّافين والمنجّمين[1] .

ولكنّها لوضوح إسلاميّة منطلقها أمام تهافت الدعوات المناقضة لها، استطاعت أن تكسب القلوب ، وأن تجذب الفطر السّليمة وأن يعترف حتى الكفّار بانطباقها على الصّورة العقديّة التي جاء بها الرّسول ﷺ وتمثّلها الصّحابة .

مثل قول " يوركهارت " الذي التقى بالإمام سعود بن عبد العزيز عام (١٨١٠م) : « ما الوهابية إذا شئنا أن نصفها إلاّ الإسلام في طهارته الأولى » . وقال : « لكي نصف الدين الوهابي فإنّ ذلكَ يعني وصف العقيدة الإسلاميّة »[2] .

هذا المنطلق التوحيدي حقّق لهذه الدعوة ولحياة أتباعها صحة إسلاميّتها في الفكر والعبادة ومنهج الحياة العمليّة، وحمى المجتمع السعودي بعد الانفتاح على المجتمع الحديث من الانجراف وراء الفلسفات والنظريات التي تفسّر الكون وترسم مناهج الحياة على أصول مناقضة للإسلام ، تحارب الدين صراحةً ، أو تجعله ثانوياً فرديّاً مبعداً عن الحياة الاجتماعيّة ، وهو ما أثر على كثيرٍ من مجتمعات المسلمين .

المرتكز الثّاني : العلميّة

ليس غريباً على دعوة تنادي بالعودة إلى الإسلام الصّحيح الذي دعا الإنسان ليقيم إيمانه بحقائقه العقديّة على فكرٍ متجرّد من الأهواء ، مرتكز على القواعد الفطريّة التي لا تقوم معرفةٌ سليمةٌ في أي مجال إلاّ بالارتكاز عليها : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** ﴾[3] .

---

(١) ولاريب أنه كان هناك علماء شرعيون يدركون صواب هذه الدعوة ويسعدهم ظهورها .

(٢) نقلاً من : السعوديون والحل الإسلامي، ص ١٣٣ .

(٣) الآية رقم (٤٦) من سورة سبأ .

والذي يجعل العلم سابقاً للعمل وموجّهاً له : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ** ﴾[1] ليس غريباً أن تجعل العلم خطوتها الأولى في سير الحركة .

لقد ذكر الشيخ محمّد بن عبد الوهاب أنّ المنهج التّربوي لصياغة الشّخصية المسلمة صياغةً متكاملةً يتحقّق بخطواتٍ أربع وهي :

- العلم .
- ثمّ العمل بمقتضى هذا العلم .
- ثمّ الدّعوة إليه .
- ثمّ الصّبر على الأذى فيه والثّبات معه .

آخذاً هذه الخطوات من سورة العصر التي أقسم الله فيها أنّ الإنسان لا نجاة له من الخسران الدّنيوي والأخروي إلا بتحقّقه بأربع صفات : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾[2] .

لربّما يقال ؛ لكن هذا العلم الذي جعله الخطوة الأولى في بناء الشّخصيّة الإسلاميّة محصورٌ بمعرفة محدودة هي المعرفة الشرعيّة فقط ، أمّا العلم كما هو في الاصطلاح المعاصر « المعارف الرِّياضية والتّجريبية » فهو خارج هذا الإطار إن لم يكن حصر العلم بالمعرفة الشّرعيّة إيذاناً بنفيه أصلاً .

والإجابة عن هذا التّساؤل أنّ العلم المقصود لدى الشيخ وهو « العلم » إذا أطلق هكذا في التّراث الإسلامي كلّه هو المعرفة الشرعيّة ؛ أي هو « العقيدة والشّريعة » .

---

(١) الآية رقم (١٩) من سورة محمّد .

(٢) الآية رقم (٣) من سورة العصر .

فالعلم بها هو الأصل والمقدم والواجب العيني على كل مسلم فيما يسمّى « المعلوم من الدين بالضّرورة » في الاعتقاد أو العمل ، وهو الذي لا يقوم إسلام المرء إلا به .

أما المعارف الرياضية والتجريبية فإن موقعها في هذه الركيزة يتحدد من جانبين :

الأول : عقدي وهو أن المسلم يؤمن بأن الله هو الذي خلق الوجود المحيط به جماداً ونباتاً وحيواناً، وأنه جعل الإنسان خليفةً فيه يستعمره[1]، ويستثمر خيراته في مسكنه ومركبه وملبسه ومأكله وزينته[2].

ووجَّهَ الوحيُ المسلمَ إلى التفاعل مع هذا الكون بالتأمل والنظر للشعور بعظمة خالقه[3] وبالتمتع بخيراته للاستعانة بها على طاعة الله وشكره عليها.

الثاني : شرعي ، وهو أن ما تقتضيه المصلحة الشرعية في المجتمع المسلم يرتفع إلى مستوى الفرض الكفائي الذي يجب على المجتمع أن يهيِّئ من يسد النقص فيه وإلا أثم المجتمع كله .

والمعارف التجريبية داخلة في هذه الفروض الكفائية ، فحاجة المجتمع المسلم إلى الطبيب والمهندس والزراعي والمتخصّصين بالفنون العسكرية والإعلامية ونحوها تجعل تلك المعارف مطالب شرعية قائمة .

---

(١) قال سبحانه : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ الآية رقم (٦١) من سورة هود .

(٢) قال تعالى : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ... ﴾ الآيات (٥-٧) من سورة النحل .

(٣) قال سبحانه : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ الآيتان (٢٠ ، ٢١) من سورة الذاريات .

فالعلوم التجريبية إذن متضمنةٌ في « العلم الشرعي » بجانبيه العقدي والتشريعي وليست قسيماً كما يتصور المتأثرون بمنهج الفصل بين العلم والدين في أوربا التنويرية .

لقد كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بعثاً علميّاً في الجزيرة العربية بعد أميَّة شديدة لا في مجال الكتابة والخط ، بل وفي مجال الثّقافة والفهم ، ولهذا كان من القضايا التي انتقد أعداء الدعوة فيها الشيخ وعدوه ثلمة في دينه وعلمه أنّه يدعو « للاجتهاد » والنظر في أقوال الفقهاء[1] .

والاجتهاد أحد الأسس الكبرى التي رفع الإسلام بها عقل المسلم ليتعامل مع الشّريعة تعاملاً قائماً على الوعي والفهم واستمداد الحكم الشّرعي من الشريعة الثابتة لأحواله المتغيّرة ، وهو الذي أعطى للفقه الإسلامي عظمته في الحضارة الإسلاميّة .

هذا الاجتهاد أصبح في السّاحة الثقافيّة التي خرج فيها الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب وصمةً تدين صاحبها ، ممّا يدلّ على أميّة الثقافة والتكلّس الفكري ، وأنّ دعوة الشيخ انتقلتْ به نقلةً كبيرةً لكنها متزنةٌ ، فهي لم تتنكّر للجهود الفقهيّة للأئمّة ومن بعدهم ، ولكنّها لم تستبدل أقوال بعضهم بشريعة الله المنزّلة ، إذ هي المقدّمة على أقوالهم لو حدث تعارضٌ .

المرتكز الثالث : الحركيّة

على الرّغم من إدراك الشيخ محمد بن عبد الوهاب البون الشاسع بين مطلبه الدعوي والواقع الذي هو ميدان دعوته والذي يصل إلى درجة التضادّ ،

(١) انظر : صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان ، تأليف محمد بشير السهسواني ، ص ٤٧٤ ، الطبعة الثالثة .

إلاّ أنّه لم يقدّم دعوته بصفتها نظريّةً فلسفيّةً أو مذهبيّةً مثاليّةً في قالبٍ فكريٍّ يستهدف تغييراً شاملاً في الواقع .

فهي دعوةُ رفضٍ للواقع الفاسد ، وبعثٌ لواقعٍ جديدٍ ، وتطبيقٌ لمنهجيّةٍ جديدةٍ في الحياة في مَسَارَيْهَا الفكري والعملي .

وقد تجلّت هذه الحركيّة في تعريفه للإيمان الذي رفض فيه تعريفات المتكلّمين ، التي تحصره في الدّائرة النظريّة ، وعاد به إلى المفهوم الإسلامي الأصيل ، وهو مفهومٌ حركيٌّ شاملٌ لحركة الإنسان كلّها « الإيمان : اعتقادٌ بالجنان ، وقولٌ باللّسان ، وعملٌ بالجوارح والأركان ، يزيد بالطّاعة ، وينقص بالعصيان »[1] .

كما تجلّت الحركيّة في الأسلوب التربوي والتعليمي الذي اتّجه به إلى سائر طبقات الناس الناشئة والكبار والعلماء ، من خلال تدريسه المباشر ، ومن خلال تأليفه لتلك الرَّسائل القصيرة الواضحة ، وأيضاً من الرسائل التي يناقش فيها العلماء ، لا لمجرّد الجدل أو الخلاصات النظريّة ، وإنما للوصول إلى الحقّ والتزامه من قبل المحاور ، أو انكشاف عناده ورفضه الحقّ أمام أتباعه .

ومن أهمّ عناصر حركيّتها تبنّيها سلطة سياسية تقوم بها وتنشر منهجها بالتطبيق الدّاخلي والدعوة إلى الإسلام في المجال الخارجي .

المرتكز الرابع : الدولة

أخْذُ دعوة الشيخ بالفهم الشمولي للإسلام الذي هو به منهجٌ حاكمٌ على الحياة البشريّة في كلّ جوانبها الفرديّة والاجتماعيّة ومجالاتها المختلفة ،

(١) انظر : القسم الخامس من الرسائل الشخصيّة للشيخ ، رسالة رقم (ص) ، من مطبوعات أسبوع الشيخ .

وأخْذُها بالمنهج الحركي في التعامل مع الواقع ، يقضيان بضرورة وجود دولةٍ للدعوة تحقّق حركيّتها من خلال :

- نشر العلوم الشرعيّة والدعوة إلى الله .
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .
- إقامة الحدود الشرعيّة ورعاية المصالح الشرعيّة العامة .
- السعى لإعلاء كلمة الله بالسبل الممكنة .

وقد تحقّق هذا المرتكز باتفاق الشيخ مع حاكم " الدرعية " محمد بن سعود كما سبق، ووعتْ هذه الدولة مسؤوليّتها الحركيّة ، فكانت دولة الإسلام ، وقامت بوظائفها ، وعلا أمرها بذلك ، فوحّدتْ معظم الجزيرة العربيّة ، وطهّرتها من الوثنيّة ، وأشاعتْ الأمن في ربوعها ، وأعادت الروح الإسلاميّة أخوّةً وبذلاً للمعروف ، وتعاوناً على الخير ، وممارسةً سليمةً لشعائر الدين ، وحساسيةً تجاه أيّ شائبة شرك ، وحرصاً على العلم الشرعي . . . إلخ .

وممّا يدلّ على قيمة هذا المرتكز ما كانت تؤول إليه الأوضاع في الجزيرة العربيّة مهد هذه الدّعوة حينما انتهت الدّولة السعوديّة الأولى - بعد تدمير إبراهيم باشا للدرعية عام ١٢٣٣هـ ، وكذلك الثانية - من فوضى وتعطيلٍ للحدود ، وصراعٍ بين القبائل والزعماء ، وانفلات حبل الأمن وفتن شاملةً تضيع معها المصالح الشّرعيّة والحقوق الإنسانيّة .

وخلاصة القول : أنّ الدعوة الإسلاميّة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد في القرن الثاني عشر الهجري ، وتبنّتها دولة الدرعية بقيادة محمّد بن سعود وأبنائه من بعده ، كانت تجديداً لأمر الإسلام، وإعادةً لتشكيل الحياة وفق منهج الإسلام بتأسيسٍ عقديٍّ سليمٍ ، وشموليّةٍ لنظم الحياة

كلّها بصورة قليلة أمثلتها في بلاد العرب بعد قرون الإسلام الأولى؛ قرون الصحابة والأئمة من بعدهم ، وبهذا التشكيل برزتْ قيمة الجزيرة العربيّة مجتمعاً ودولةً ، وتميّز حضورها عن سائر مجتمعات المسلمين ، وأصبح هذا التشكيل الذي حملته وتحمّلته رسالةً مرتبطةً بها ارتباطاً عضويّاً ، مما يعني أنّ علوّ مقامها ونزوله مرهونٌ بحملها هذه الرسالة أو تخلّيها عنها .

وكان هذا حاضراً في وعي رجال الدولة السّعوديين ، ولهذا حينما عادت الدولة السعوديّة الثانية بقيادة تركي بن عبد الله وابنه فيصل لم تكتف بملك مجرّد ، وإنما أعادتْ الدعوة لتوجّه حركة الدولة والمجتمع ، وليقوم العلم الشرعي بدورٍه في تأكيد ارتباط الحياة بشريعة الله، وقد برز في هذه الفترة حفيدُ الإمام (محمد بن عبد الوهاب) عبدُ الرحمن بن حسن، وابنه عبد اللطيف وعلماء آخرون سواهما .